البحث السابع

الظل فى القرآن الكريم

دراسة أدبية

دكتور / عصمت محمد أحمد رضوان

مدرس الأدب والنقد . كلية اللغة العربية بجرجا

المقدمة

الحمد لله الكبير المتعال ، منشئ السحاب الثقال ، سبحانه تنـــزه عن الأشباه والأمثال ، وسجد له من فى السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق فى الأقوال والأفعال ، هادى الأمة من الضلال . اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه عدد أوراق الأشجار وحبات الرمال ، صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين إلى يوم المآل .

أما بعد

فإن القرآن الكريم هو ينبوع الفصاحة ، ومعين البلاغة ، والنبع الثر الذى يستقى منه الفصحاء والبلغاء ، فلا يغيض ماؤه ، ولا تنأى عن الواردين رشاؤه .

وقد عالج القرآن الكريم كثيرًا من الموضوعات بأسلوب غاية فى الإعجاز ، لا يملك العقل إزاءه إلا أن يقف مشدوهًا مذهولاً .

تحدث الذكر الحكيم عن الظل فى آيات كثيرة ، واصفًا إياه بأنه نعمة من نعـــم الله (عز وجل) على عباده ، خالعًا عليه من الأوصاف والخصائص ما يـــشهد بعظمـــة البيـــان القرآنى .

كما تحدث القرآن الكريم عن الظل فى الدار الآخرة ، فذكر ظل النعيم لأهل الجنة، وظل العذاب لأهل النار ، واصفًا كليهما بما يناسبه من الأوصاف .

وقد رأيت أن يكون هذا الموضوع (الظل فى القرآن الكريم) ميدانًا لدراســـتى فى هذا البحث ؛ حيث أحاول السياحة فى رحاب آيات الظل فى القرآن الكريم متناولاً حديث القرآن الكريم عن ظل الدنيا ، ثم ظل الآخرة ، محاولاً استنباط بعض ملامح التصوير الفنى فى

آيات الظل عن طريق دراسة أدبية فى جانبى التحليل الموضوعى والتشكيل الفنى .

والله أسأل أن يكون عملى هذا خالصًا لوجهه الكـــريم ، وأن يجعلـــه فى ميـــزان حسناتى يوم الموقف العظيم .

والله الموفق وهو الهادى إلى الصراط المستقيم .

الباحث

تمهيد
الظل : مفهومه وأهميته

من المعروف أن الظل هو الموضع الذى لم تصل إليه أشعة الشمس .

جاء فى معجمات اللغة :

كل ما لم تطلع عليه الشمس فهو ظل ، والظل نقيض الضِّح ، وكل موضع تكون فيه الشمس فتزول عنه فهو ظل وفىء ، وجمع الظل ظلال وظلول .

ومنه قول الشاعر يصف أهل الجنة [1] :

فَسَلامُ الإِلهِ يَغدُو عَلَيهِم
وَفُيُوءُ الفِردوسِ ذاتُ الظِلالِ

وقوله الآخر [2] :

لَقَد سِرتُ شَرقِيَّ البِلادِ وَغَربِها
وَقَد ضَرَبَتني شَمسُها وَظُلولُها

والظلّة : الظلال ، والظلّة: أول سحابة تظل ، واستظل الرجل : اكتن بالظل ،

(١) البيت للنابغة الجعدى وهو فى ديوانه ص ١٤٢ – تحقيق د / واضح الصمد – ط دار صادر – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٨ م ، والبيت من بحر الخفيف التام .

(٢) البيت لكثير عزة وهو فى ديوانه ص ١٧٣ – شرح قدرى مايو – ط دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، والبيت من بحر الطويل .

واستظل بالظل : مال إليه وقعد فيه [١] .

والظل نعمة من نعم الله (تعالى) على خلقه ، فبه يتقون حر الشمس ووهجها وفيه يقومون بأعمالهم النهارية من دون أن يعوقهم لهيب الشمس حتى إن العرب اشتقت من (الظل) الفعل : (ظلّ) للدلالة على كل فعل يتم بالنهار ، يقال : ظلّ نهاره يفعل كذا وكذا [٢] .

ولشدة احتياج الناس للظل لم يكتفوا بالظلال الطبيعية كظلال الأشجار والجبال ونحوها ، بل ابتكروا أشياء صناعية تجلب لهم الظل وأسموها باسم مشتق من الظل كذلك ، فأطلقوا عليها اسم (المظلة) . جاء فى لسان العرب: " المظلة : الخيمة من أعواد تُسقَف بالثمام " [٣] .

وقد عرف الناس أهمية الظل وخصائصه منذ القدم ، حتى مع ظهور الإسلام استخدم المسلمون الأوائل الظل فى تحديد مواقيت الصلاة ، كما استُخدم الظل قديمًا فى تقسيم النهار إلى ساعات متساوية .

كذلك استخدم الظل فى أول شكل من أشكال المسرح فيما عرف بتمثيليات خيال الظل .

ولعظم ما يشعر الإنسان بالراحة فى الظل استخدم (الإظلال) لكل شيء يشعر الإنسان فيه بالراحة والطمأنينة .

فيُقال : أظلنا شهر رمضان المبارك ، وعملنا فى ظل قيادة حكيمة .

وإذا كان الظل نعمة من نعم الدنيا ، فهو كذلك لون من ألوان النعيم للطائعين فى الآخرة ، فهو نعيم يضارع الأنهار الجارية ، والقطوف الدانية ، والكواعب الأتراب ، والولدان المخلدين ، بل إن بعض آيات القرآن الكريم تقدم الظلال فى الذكر على غيرها من صنوف نعيم الجنة . قال تعالى :﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [٤] . فالظل نعمة من نعم الله (عز وجل) على خلقه فى الدنيا والآخرة ، فسبحان الخالق المنعم المتفضل .

* * *

(١) انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادى – مادة (ظ . ل . ل) ٤ / ١٦ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ، ولسان العرب لابن منظور – مادة (ظ . ل . ل) ١١ / ٤١٥ ، ٤١٦ – ط دار صادر – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

(٢) انظر : لسان العرب – مادة (ظ . ل . ل) ١١ / ٤١٥ .

(٣) راجع : السابق – مادة (ظ . ل . ل) ١١ / ٤١٨ .

(٤) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة المرسلات .

ظل الدنيا

تحدث القرآن الكريم عن الظل فى الحياة الدنيا بوصفه نعمة من نعم الله (عز وجل) على عباده ، كما أخبر القرآن الكريم بأن الظل مخلوق يسبح ويسجد لله (تعالى) ، وفى القصص القرآنى نرى الظل ملاذًا أوى إليه موسى (عليه السلام) بعد سقيه للفتاتين ، كما نرى الظل نفسه عذابًا للمكذبين من قوم شعيب (عليه السلام) .

وقد خلع القرآن الكريم على الظل الدنيوى أوصافًا دقيقة فصلتها الآيات الكريمة .

الظل نعمة :

● يقول الله (عز وجل) : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ذكرت الآية الكريمة الظل فى سياق الحديث عن نعم الله (تعالى) على عباده فيما يتصل بالسكنى والاستقرار ووسائل الراحة ، ففى الآية السابقة لهذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِين ﴾ (٢) .

فكما أن البيوت الثابتة نعمة ، والخيام المتنقلة نعمة ، وكما أن الكهوف فى الجبال نعمة ، وكما أن الملابس نعمة ، والدروع فى الحرب ، كذلك الظل من النعم التى أتمها الله

---

(١) الآية ٨١ من سورة النحل .

(٢) الآية ٨٠ من سورة النحل .

على خلقه ، وجعلها موجبة للإيمان به ، والانقياد له .

جاء فى تفسير الطبرى أن المعنى : كما أعطاكم ربكم هذه الأشياء التى وصفها فى هذه الآيات نعمة منه بذلك عليكم ، فكذا يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون بأن تخضعوا لله بالطاعة ، وتخلصوا له العبادة [1] .

وقد حوت الآيتان من حسن العرض وقوة الإقناع وإقامة الحجة ما يدفع إلى الإيمان بالمنعم والتسليم لمراده إلا من تولى وكفر .

روى أن أعرابيًّا سمع هاتين الآيتين فقال عند كل نعمة : " اللهم نعم " ، فلما سمع " لعلكم تسلمون : قال : " اللهم هذا فلا " فنزلت : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [2] [3] .

وتعبير القرآن بالجعل والخلق فى حق الظل له دلالته ؛ فالظلال ليست عدمًا محضًا ، وإنما هى مخلوق له وجوده وفائدته .

وكذلك الإتيان بصيغة الجمع (الظلال) يدل على تنوعها بتنوع الأجسام المحدثة لها من جبال ، وسحب ، وأشجار ، ومبانٍ وغيرها .

كما يلاحظ هنا براعة التعبير القرآنى ومقدرته على مراعاة أحوال المخاطبين من العرب ، وطبيعة أحوالهم ومعيشتهم .

جاء فى تفسير البغوى : " إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم ، فقال : (وجعل لكم من الجبال أكنانًا) وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر .. وقال (تقيكم الحر) وما تقى من البرد أكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر " [4] .

ومما يزيد من براعة التعبير وقوة التأثير فى الآيتين ما تحسه من تناغم إيقاعى واضح من توالى الكلمات المنتهية بالكاف والميم : بيوتكم – ظعنكم – إقامتكم ، ثم تتابع الكلمات المنتهية بالهاء والألف : أصوافها – أوبارها – أشعارها ، كذلك ابتداء الآية الثانية بجملتين متساويتين فى الإيقاع منتهيتين بالحرف نفسه : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ

---

(١) انظر : تفسير الطبرى (محمد بن جرير الطبرى) ١٧ / ٢٧٠ – ط دار المعارف .

(٢) راجع : التفسير الكبير المسمى البحر المحيط لأثير الدين أبى عبد الله محمد بن يوسف الأندلسى ٥ / ٥٢٤ – ط دار إحياء التراث العربى .

(٣) الآية ٨٢ من سورة النحل .

(٤) تفسير البغوى (الحسين بن مسعود البغوى) ٥ / ٣٦ – ط دار طيبة .

لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ﴾ ، أضف إلى ذلك تكرار كلمتى (سرابيل) و (تقيكم) ، ناهيك عن السجع الرصين غير المتكلف فى ختام الآيتين ، كل ذلك أحدث تناغمًا واضحًا جعل الكلمات تتوالى فى تآلف وانسجام .

● ومن الآيات التى تدل على أن الظل نعمة من نعم الله (عز وجل) وتبيّن أهميته قوله (تعالى) : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [1] .

فقوله (سبحانه) : ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴾ يشير إلى أهمية الظل كنعمة لله على عباده ، حيث ذكره مع نعم البصر والنور والحياة فى سياق ضرب الأمثال لحال المؤمنين والكافرين .

قال قتادة : " هذه كلها أمثال ، أى كما لا تستوى هذه الأشياء ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن " [2] .

فقد ضرب القرآن الكريم الظل مثلاً لأثر الإيمان ، وضده هو الحرور مثلاً لأثر الكفر ، والظل مكان نعيم فى عرف السامعين الأولين ، وقد قوبل بالحرور لأنه مؤلم ومعذّب فى عرفهم .

فحال المؤمن يشبه حال الظل : تطمئن فيه المشاعر ، وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وتريث وإتقان ، وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ، ولا تتمكن فيه القوى من التأمل والتبصر ، وتصدر فيه الآراء والمساعى معجلة متفككة [3] .

ومما يدل على أهمية الظل فى هذا السياق أن بعض المفسرين ذكر أن المراد بالظل الجنة ، وأن المراد بالحرور النار [4] .

فعلى هذا الرأى يكون القرآن قد عبر عن الجنة – التى هى أقصى غايات النعيم – بالظل مما يدل على قيمته وأهميته .

ولأهميته – كذلك – قدّمه النظم القرآنى على الحرور ، ولم يؤخره كما فى المثلين

---

(١) الآيات من ١٩ إلى ٢٢ – سورة فاطر .

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ٣٠٤ – طبعة دار الفكر .

(٣) انظر : تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور – ط دار سحنون ٢٣ / ٢٩٣ .

(٤) راجع : تفسير الطبرى ٢ / ٤٥٧ .

السابقين الذين قدم فيهما مثل الكافر (الأعمى) ، و (الظلمات) ، ولا يخفى أن من دواعى تقديم الظل مراعاة الفاصلة " وفواصل القرآن من متممات فصاحته ، فلها حظ من الإعجاز " [1] .

وتبدو دقة التعبير القرآنى فى اختيار كلمة (الحرور) دون (الحر) ، فإلى جانب مناسبة الأولى لفواصل الآيات ، فهى أكثر ملاءمة للمعنى لأن الحرور بصيغتها اللغوية تدل على شدة الحر ، فناسب ذلك مقابلتها للظل الذى هو شدة اعتدال الجو ، وكما أن ظل الشمس لا يكون إلا نهارًا فكذلك الحرور ، قال الأخفش : " والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل " [2] .

وقد سلكت الآية سبيلاً بديعًا فى استخدام أدوات العطف والنفى : فكل من الواوين اللذين فى قوله : " ولا الظلمات " ، وقوله : " ولا الظل " عاطف جملة على جملة ، وعاطف تشبيهات ثلاثة كل تشبيه منها يجمع الفريقين ، والتقدير : ولا تستوى الظلمات والنور ، ولا يستوى الظل والحرور ، وقد صرح بالمقدر أخيرًا فى قوله : وما يستوى الأحياء ولا الأموات .

وأما الواوات الثلاثة فى قوله : " والبصير " ، " ولا النور " ، " ولا الحرور " ، فكل واو منها عاطف مفرد على مفرد ، فهى ستة تشبيهات موزعة على كل فريق ؛ فالبصير عطف على الأعمى ، والنور عطف على الظلمات ، والحرور عطف على الظل ولذلك أعيد حرف النفى .

وأما أدوات النفى فاثنان منها مؤكدان للتغلب الموجه إلى الجملتين المعطوفتين المحذوف فعلاهما " ولا الظلمات " ، " ولا الظل " ، واثنان مؤكدان لتوجه النفى إلى المفردين المعطوفين على مفردين فى سياق نفى التسوية بينهما وبين ما عطف عليهما وهما واو " ولا النور " وواو " ولا الحرور " ، فالتوكيد بعضه بالمثل وهو حرف " لا " وبعضه بالمرادف وهو حرف " ما " ، ولم يؤت بأداة نفى فى نفى الاستواء الأول ؛ لأنه الذى ابتُدئ به نفى الاستواء المؤكد من بعد فهو كله تأييس ، وهو استعمال قرآنى بديع فى عطف المنفيات من المفردات والجمل [3] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٩٣ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ٣٠٤ .

(٣) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

وقد أدت الطباقات المتتالية بين (الأعمى) ، و (البصير) ، وبين (الظلمات) ، و (النور) ، وبين (الظل) ، و (الحرور) ، وبين (الأحياء) ، و (الأمـوات) دورهـا فى إيضاح المعنى وتأكيده ، وبيان البون الشاسع بين فريقى الإيمان والكفـر ، ومثلـها طبـاق السلب بين (يسمع) و (ما أنت بمسمع) .

وما أجمل الأسلوب الكنائى فى قوله (من فى القبور) حيث كنى به عن الأموات ، وهو فى الوقت نفسه استعارة تصريحية للكافرين ، فهم كالأموات فى عـدم قبـول الحـق والاستجابة له .

كما اشتملت الآيات الكريمة على ألوان من القيم الإيقاعية الناجمة عن الفواصـل المنتهية بحرف الراء المسبوقة بالمدّ ، إلى جانب تكرار حرف النفى (لا) مما أحـدث وقعًـا واضحًا فى السمع .

● ولأن الظل نعمة من نعم الخالق نرى القرآن الكريم يمتن على بنى إسرائيل بتظليل الغمام لهم فى قوله (تعالى) مخاطبًا لهم : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَـا عَلَـيْكُمْ الْمَـنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١) .

وقوله (سبحانه) مخبرًا عنهم : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَـا عَلَـيْهِمْ الْمَـنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢) .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين يمتن المولى (جل وعلا) على بنى إسرائيل بنعمة تظليل السحاب لهم ، حيث جعل القادر السحاب " ظلاًّ عليهم فى التيه يـسير بـسيرهم ويقـيم بإقامتهم " (٣) .

ولأهمية هذا الظل وفضله قدمه الذكر الحكيم فى الترتيب على ما امتن الله به عليهم من رزقهم أطايب الطعام .

فالظل المذكور فى الآيتين ظل مخصوص هو ظل الغمام ، وظل الغمام أمر مُـشاهد معروف ، لكنه هنا معجزة فى ماهيته وفى حركته ، ففى ماهيته هو سحاب مخلـوق لـيس

---

(١) الآية ٥٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ١٦٠ – سورة الأعراف . والمراد بالمن : طل ينزل من السماء ، وقيل : هو شبه العسل كان ينزل على بنى إسرائيل ، والسلوى : طائر ، وقيل : طائر أبيض مثل السمَّان ، واحدته : سَلْواة . (انظر: لسان العرب – مادة (م . ن . ن) ١٣ / ٤١٨ ، ومادة (س . ل . و) ١٤ / ٣٩٥) .

(٣) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية لمحمد بن على الشوكانى ص ٥٠٦ – ط دار المعرفة .

كسحاب أهل الأرض . يقول الطبرى نقلاً عن ابن عباس (رضى الله عنه) : " هو غمام أبرد من هذا وأطيب " [١] .

وأما فى حركته فهو مسخر لهم يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم كما ذكر الشوكانى[٢] .

ومن جماليات التعبير القرآنى فى الآيتين الإيجاز بالحذف فى قوله (تعالى) : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ حيث حذف أولاً فعل القول أى : قلنا لهم كلوا ، ثم حذف كلام قبل العطف قدره بعضهم[٣] جملة أى فظلموا وما ظلمونا[٤]، وقدره آخرون أكثر من جملة أى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر ، فظلموا أنفسهم وما ظلمونا [٥] ، وللإيجاز بالحذف قيمته فى استيفاء المعنى مع الاختصار فى اللفظ .

كذلك كان لطباق السلب فى آخر الآيتين دوره فى تأكيد المعنى والتنبيه على ضلال هؤلاء ، وواضح أن السر فى تقديم المفعول " أنفسهم " اختصاصها بالظلم .

ولعل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى الآية الثانية مراده التنبيه ولفت انتباه المخاطبين .

ومن عناصر إيقاع الكلمات فى الآيتين التوافق بين الجرس بين " ظلمنا " ، و"أنزلنا"، وتكرار " عليكم " فى الآية الأولى ، و " عليهم " فى الآية الثانية ، إلى جانب تكرار حروف المد التى أحدثت أثرًا إيقاعيًّا لا يخفى .

أوصاف ظل الدنيا :

حدد القرآن الكريم أوصافًا دقيقة لظل الدنيا ، ومن هذه الأوصاف :

أولاً : الظل يتفيأ عن اليمين وعن الشمائل .

ثانيًا : الظل يسجد لله (تعالى) .

ثالثًا : الظل ممدود .

---

(١) تفسير الطبرى ٢ / ٩٠ .

(٢) فتح القدير ص ٥٠٦ .

(٣) انظر : تفسير التحرير والتنوير ١ / ٥١٠ .

(٤) راجع : فتح اقدير ص ٦٠ .

(٥) انظر : فتح القدير ص ٦٠ .

رابعًا : الظل من الممكن أن يكون ساكنًا .

خامسًا : الظل مرتبط بالشمس .

سادسًا : الظل يُقبض قبضًا يسيرًا .

وهذه الأوصاف ذكرت مفرقةً فى أكثر من موضع من كتاب الله (عز وجل) :

● ففى قوله (سبحانه) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [(١)] .

نرى هذه الآية ذكرت وصفين من أوصاف الظل هما أنه يتفيأ عن اليمين والشمائل وأنه يسجد لله رب العالمين .

ومعنى يتفيأ أى يميل من جانب إلى جانب ، فالظل يكون أول النهار على حـــال ثم يتقلص فيكون فى آخر النهار على حال أخرى .

قال الأزهرى : " تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار " [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ سُجَّداً لِلَّهِ ﴾ منتصب على الحال أى حال كون الظلال سجدًا لله.

قال مجاهد : " إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل " [(٣)] .

وقال الزجاج : " يعنى أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة ، وقال أيضًا : ســـجود الجسم انقياده ، وما يُرى من أثر الصنعة ، وقوله (وهم داخرون) فى محل نصب على الحال أى خاضعون صاغرون ، والدُّخور : الصِّغار والذل " [(٤)] .

ولعل السر فى إفراد الضمير فى " ظلاله " رغم كون المضاف جمعًا هو مراعاة لفظ " ما" الموصولة. قال الشوكانى: "وظلاله جمع ظل وهو مضاف إلى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة "[(٥)].

أما السر فى الإتيان بلفظ (اليمين) مفردًا ، و (الشمائل) مجموعًا فللعلماء فيه آراء : قال الفراء : " وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازًا فى اللفظ كقوله : ﴿ وَيُوَلُّونَ الـــدُّبُرَ ﴾ [(٦)] ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع " .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النحل .

(٢) انظر : فتح القدير ص ١٨٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٧٦ – ط دار طيبة .

(٤) راجع : فتح القدير ص ١٨٤ .

(٥) السابق : الصفحة نفسها .

(٦) من الآية ٤٠ سورة القمر .

وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [1] ، وقيل : المراد باليمين النقطة التى هى مشرق الشمس وأنها واحدة ، والشمائل عبارة عن الانحراف فى فلك الظلال بعد وقوعها على الأرض وهى كثيرة ، وإنما عبر عن المشرق باليمين ؛ لأن أقوى جانبى الإنسان يمينه ، ومنه تظهر الحركة القوية[2].

ويرجع بعض العلماء المعاصرين السر فى ذلك إلى حقيقة علمية هى أن الآية الكريمة عبرت عن انتقال الظل فى كل من نصفى الأرض الشمالى والجنوبى ، أما نصف الأرض الشمالى فإن مراقبة حركة ظلال الأشياء فيه تستلزم أن نقف مواجهين لجهة الشمال ، وفى هذا الوضع تكون جهة الشرق على اليمين وجهة الغرب على الشمال وكأن ظلال الأشياء تنتقل من جهة الغرب إلى جهة الشرق فإن هذا يعنى أنها تنتقل من جهة الشمال إلى جهة اليمين وهو ما يتوافق مع ما جاء فى هذه الآية الكريمة من تفيؤ الظلال عن الشمائل أى رجوعها من جهة الشمال إلى اليمين .

وأما نصف الأرض الجنوبى فإن مراقبة حركة ظلال الأشياء فيه تستلزم أن تقف مواجهة لجهة الجنوب ، وأن هذا الوضع تكون جهة الغرب على اليمين وجهة الشرق على الشمال ، وبما أن ظلال الأشياء تنتقل من جهة الغرب إلى جهة الشرق فإن هذا يعنى أنها تنتقل من جهة اليمين إلى جهة الشمال وهو ما يتوافق مع ما جاء فى الآية الكريمة من تفيؤ الظلال عن اليمين أى رجوعها من جهة اليمين إلى الشمال .

وهذا يعنى أن الآية الكريمة قد عبرت بدقة متناهية عن حركة الظلال من جهة الغرب إلى جهة الشرق فى نصفى الأرض الشمالى والجنوبى فى آن واحد وبدقة متناهية باستخدام لفظ اليمين كإشارة لجهة الشرق ، ولفظ الشمائل إشارة لجهة الغرب .

ولأن مساحة اليابسة وعدد السكان فى نصف الأرض الشمالى أكبر من نصفها الجنوبى ؛ لذا كانت ظلال الأشياء المنتقلة من جهة الشمال لليمين فى النصف الشمالى أكبر بكثير منها فى النصف الجنوبى ، ومن هنا جاء تعبير الآية عن الشمائل بصيغة الجمع ، والتعبير عن اليمين بصيغة المفرد [3] .

---

(١) من الآية الأولى من سورة الأنعام .

(٢) فتح القدير ص ١٨٤ .

(٣) انظر فى ذلك:إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال – بحث ألقاه الدكتور / يحيى وزيرى – فى المؤتمر العالمى الثامن للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة بالكويت – وطبعته الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة – وهذه المعلومات فى ص ٩ ، ١٠ من المطبوع .

ولا مانع أن تكون هذه التعليلات واردة جميعها،فكتاب الله ينبوع ثرٍ لا يغيض ماؤه ولا تنقضى عجائبه .

وقد جاءت ألفاظ الآية فى نسق بديع ، وقد اشتملت على عدد من الأساليب التى تضافرت معًا لتؤدى الغرض المراد وهو حمل المخاطبين على الإقرار بعظمة الخالق جل وعلا وقدرته .

فالاستفهام الإنكارى فى أولها يدعو إلى التدبر والتأمل فى آية الله المشاهدة (الظل) ومتابعة حركته الدالة على القدرة الإلهية ، وأسلوب الطباق (عن اليمين والشمائل) يدل على إيضاح المعنى ، والصورة الحقيقية (يتفيأ ظلاله ...) ترسم لنا صورة هذا الظل فى حركته وتنقله بدقة متناهية .

وما أجمل ختام الآية (وهم داخرون) حيث يدل على ذلة المخلوقات وصغارها أمام قدرة القادر الحكيم .

● وقد أشار القرآن الكريم إلى سجود الظلال فى موضع آخر هو قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ (١) .

فالآية تتحدث عن عظمة الخالق (جل وعلا) ، وعن سجود الكائنات لجلاله (سبحانه) ، وتذكر أن مما يسجد لله ظلال الأشياء حيث تخضع لعزته وتذل لجبروته شاهدة على تفرده بالقدرة .

يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير : " ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية ، فهى مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها ، وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتى تكون الظلال واقعة على الأرض وقوع الساجد ، فإذا كان من الناس من يأبى السجود لله أو يتركه انشغالاً عنه بالسجود للأصنام فقد جعل الله مثاله شاهدًا على استحقاق الله السجود إليه شهادة رمزية ، ولو جعل الله الشمس شمسين متقابلتين على السواء لانعدمت الظلال ، ولو جعل وجه الأرض شفافًا لامعًا كالماء لم يظهر الظل بيِّنًا ، فهذا من رموز الصنعة التى أوجدها الله وأدقها دقة بديعة ، وجعل نظام الموجودات الأرضية مهيئة لها فى الخلقة لحكم مجتمعة منها أن تكون رموزًا دالة على انفراده تعالى بالإلهية ، وعلى حاجة المخلوقات إليه ، وجعل أكثرها فى نوع الإنسان ؛ لأن نوعه مختص بالكفران دون الحيوان ،

---

(١) الآية ١٥ من سورة الرعد .

والغرض من هذا الاستدلال الرمزى التنبيه لدقائق الصنع الإلهى كيف جاء على نظام مفرد دال بعضه على بعض [1] .

فالآية تدل على مظاهر الدقة فى الصنعة الإلهية ، تلك الدقة التى أجلى العلم الحديث بعضًا من مظاهرها فى هذه الناحية (سجود الظلال) ، فمن المعلوم أن من أهم شروط السجود الحقيقى لله (تعالى) فى الصلاة : التوجه إلى القبلة وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن ظلال الأشياء تشير تمامًا إلى اتجاه القبلة (الكعبة المشرفة) فى أربعة أوقات محددة من العام [2] ، وقد أفاد العلماء من هذه الظاهرة فى تحديد اتجاه القبلة فى كثير من المناطق [3] .

ويُعد هذا إعجازًا وسبقًا قرآنيًّا بكل المقاييس ، حيث لم يكن يخطر ببال أحد يوم نزول القرآن وما ذكر فيه من سجود الظلال أن هذا السجود يمكن أن يكون إشارة وملمحًا إلى أن الظلال تدل وتشير إلى القبلة حيث مكة المكرمة [4] ، فتبارك من خلق كل شىء بقدر.

وقد جمعت الآية إلى الإعجاز العلمى الإعجاز البيانى والتصويرى فى التعبير عن استقصاء الساجدين ، فقد ذكرت أنواع الساجدين من حيث المكان والزمان وحالة السجود فى عدد من الطباقات الرائعة :

فمن حيث المكان ذكرت الآية أن من فى السموات والأرض جميعًا يسجدون ، فلم يبق ثم مكان لا سجود فيه .

ومن حيث الزمان ذكرت الآية الغدو والآصال ، أى الصباح والعشى زمانين للسجود ، فالغدو يمثل النهار والآصال تُمثل الليل فلم يبق ثم زمان لا سجود فيه .

ومن حيث حالة السجود ذكرت الآية أن الساجدين إما أن يكونوا طائعين أو كارهين .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) هذه الأوقات تكون فى يوم ١٦ يناير ، ٢٩ مايو ، ١٦ يوليه ، ٢٩ نوفمبر من كل عام . (انظر : الشمس تتعامد على الكعبة المشرفة – مقالة لمحمود قاسم – منشورة فى جريدة الأهرام – العدد الصادر فى ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٤ م) .

(٣) راجع : تحديد القبلة بواسطة الشمس – مقالة لحسن بن محمد باصرة – منشورة فى مجلة الإعجاز العلمى الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمى للقرآن والسنة بجدة – العدد رقم ١١ سنة ١٤٢٢ هـ – ص ٤٠ ، ٤١ .

(٤) انظر : إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال ص ٢٣ – ٢٦ .

قال مجاهد : " ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد طوعًا وهو كاره " [1] ، فالظل يسجد طائعًا حتى لو كان صاحبه كارهًا .

وهكذا استوفت الآية حالتى الساجدين بأسلوب بديع .

● ومن الآيات الذى ذكرت أوصافًا أخرى للظل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ [2] .

فقد ذكرت الآيتان الكريمتان أربعة أوصاف للظل هى : أنه ممدود ، وأنه من الممكن أن يكون ساكنًا ، وأنه مرتبط بالشمس ، وأنه يُقبض قبضًا يسيرًا ، فكون الظل ممدودًا يشير إليه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ أى أَلَم تبصر أو أَلَم تعلم الظل كيف مده ربك أى جعله ممدودًا من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وهو ظل لا شمس معه [3] . أو معناه أن ظلال الأشياء تمتد عند شروق الشمس إلى أقصى درجة ممكنة ثم تقصر بفعل إزالة أشعة الشمس لها ، ثم تعود بعد الظهيرة إلى الامتداد مرة أخرى فى جهة الغرب حتى تصل إلى أقصى طول لها وقت غروب الشمس [4] .

وأما الإشارة إلى إمكانية كون الظل ساكنًا فنجدها فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ ، أى دائمًا لا يزول [5] ، أو لاصقًا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط فلم ينتفع به أحد [6] .

وقد أثبت العلم الحديث أن الظل الساكن موجود فعلاً ، وأنه يتمثل فى ثبات طول الظل الممدود كما هو الحال فى ظل الكرة الأرضية فى الفضاء ، أو زوال الظل تمامًا وعدم وجوده كما يحدث فى المنطقة المدارية من الأرض وقت الظهيرة تمامًا فإنه لا يوجد ظل للأشياء ، وهو ما يُعد إعجازًا وسبقًا قرآنيًا [7] .

---

(١) تفسير الطبرى ٤ / ٣٠٦ .

(٢) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الفرقان .

(٣) انظر : تفسير القرطبى .

(٤) راجع : إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال ص ٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ٦ / ١١٤ .

(٦) تفسير الكشاف للزمخشرى ٣ / ٩٩ – طبعة دار المعرفة – بيروت – لبنان .

(٧) انظر : إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال ص ٢٠ – ٢٢ .

وأما ارتباط الظل بالشمس فنجد الإشارة إليه فى قوله (جل شأنه) : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ ، أى لولا أن الشمس تطلع على الظل لما عُرف ، فإن الضد لا يُعرف إلا بضده [١] ، أو جعلنا الشمس علامة يُستدل بها على الظل ، ويستدل بأحوالها على أحواله ، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل فى الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص ، ويمتد ويتقلص [٢] .

وقد ثبت بالدليل العلمى أن هناك علاقة عكسية بين زاوية ارتفاع الشمس وطول الظل فى كل مناطق العالم بلا استثناء وعلى مدار الساعة واليوم والسنة مما يعد إعجازًا لأن إثبات هذه العلاقة يحتاج إلى دراسة أطوال الظلال وعلاقتها بالزوايا الشمسية فى كل مناطق العالم وهو أمر لم يكن مُتاحًا أو معروفًا وقت نزول القرآن الكريم [٣] .

وأما قبض الظل قبضًا يسيرًا فيشير إليه قول الخالق (عز وجل) : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ ، ومعنى قبضناه أى نقصنا امتداده ، أى أن الظل يتناقص امتداده تناقصًا يسيرًا ، وقد اختلف المفسرون فى المراد من وصف القبض باليسير ، فمنهم من رأى أن (يسيرًا) معناه سهلاً ، يسيرًا غير عسير [٤] .

ومنهم من رأى أن معناه بطيئًا دون طفرة [٥] .

وكلا المعنيين يمكن أن يكون مرادًا ، فقبض الظل فى بعض المناطق كالمنطقة الاستوائية يكون سهلاً يسيرًا ؛ إذ يحتاج لنحو ست ساعات فقط ، أما قبضه فى المنطقة القطبية فيكون بطيئًا إذ يحتاج لنحو ثلاثة أشهر ، وهذا يوضح أن القرآن الكريم قد استخدم كلمة (يسيرًا) والتى تصلح للإشارة إلى كل من المعنيين السهل والبطىء وهو يتناسب ويتطابق تمامًا مع ما يحدث من قبض الظل فى مناطق العالم المختلفة [٦].

" وفى مد الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات ، وأعمال الناس ، ونعمة التناوب فى انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس " [٧] .

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير ٦ / ١١٤ .

(٢) انظر : إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال ص ٤ .

(٣) راجع : السابق ص ١٣ .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشرى ٣ / ٩٩ .

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٢٠ / ٤٢ .

(٦) انظر : إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال ص ١٤ – ١٦ .

(٧) تفسير التحرير والتنوير ٢٠ / ٤٣ .

وفى الآيتين ما فيهما من النكات اللطيفة وجماليات العرض البديعة ، فالاستفهام فى (ألم تر) للتقرير ، وهو صالح لطبقات السامعين من غافل يسأل عن غفلته ليقر بها تحريضًا على النظر ، ومن جاحد ينكر عليه إهماله النظر ، ومن موافق يحث على زيادة النظر .

وجملة (ولو شاء لجعله ساكنًا) جيء بها معترضة للتذكير بأن فى الظل منة ، والالتفات من الغيبة إلى التكلم فى قوله (ثم جعلنا) لأن ضمير المتكلم أدخل فى الامتنان من ضمير الغائب ، وتعدية (دليلاً) بحرف (على) تفيد أن دلالة الشمس على الظل دلالة تنبيه على شيء قد يخفى ، واستخدام (ثم) للعطف فى الآيتين للدلالة على التراخى الرتبى بين الجمل المعطوفة ، وتعدية (قبضناه) بحرف (إلى) فيه تخييل حيث شبه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه [1] .

وفى الآيتين تصوير حقيقى بديع لأحوال الظل من مد وقبض ، وحركة وسكون مما هو معلوم بالمشاهدة .

وقد ألمح بعض العلماء إلى وجود إشارات وإيحاءات خفية فى الآيتين من ذلك أن فيهما إيحاء إلى تشبيه نزول القرآن وما تبعه من الهداية بظهور شمس فى المواضع التى كانت مظللة .

ومن ذلك أيضًا الإشارة إلى تشبيه هيئة تنزيل القرآن منجمًا بهيئة مد الظل مدرَّجًا .

ومن ذلك أيضًا الإلماح إلى أصل المخلوقات وما طرأ عليها من الإيجاد بعد أن كانت عدمًا ، وكيف يمتد وجودها فى طور نمائها ، ثم كيف تعود إلى العدم تدريجيًّا فى طور انحطاطها إلى أن تصير إلى العدم فذلك مما يشير إليه (ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا) فيكون قد حصل من التذكير بأحوال الظل مع المنة والدلالة على نظام القدرة تقريب لحالة إيجاد الناس وأحوال الشباب وتقدم السن ، وأنهم عقب ذلك صائرون إلى ربهم يوم البعث ، فكأن قبض الظل صار مثلاً لمصير الناس إلى الله بالبعث ، ولذا وصف القبض بأنه يسير تلميحًا إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [2] .

وهذه الإشارات المستنبطة لا تتعارض مع ما يستفاد من الآيتين من التماس العبرة بمد الظل وقبضه فى إثبات دقائق قدرة الله تعالى [3] .

ومن عظمة التصوير القرآنى هنا أن عرض مشهدًا مألوفًا – هو مشهد الظل وحركته – فى صورة بديعة تتحرك لها النفس والوجدان .

---

(١) انظر : السابق ٢٠ / ٣٩ – ٤٣ .

(٢) من الآية ٤٤ – سورة ق .

(٣) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٢٠ / ٣٨ – ٤٤ .

يقول سيد قطب : " وفى الأرض مشهد متكرر يمر به الناس غافلين ، وفى تأمله وتتبع حركته الوئيدة – التى تكاد تتم فى الخيال وإن كانت معروضة فى العيان –ما يلمس النفس ، ويؤثر فى الوجدان ، ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات ، ذلك منظر الظل الذى تلقيه الأجرام فيبدو ساكنًا وهو يتحرك ببطء لطيف .

وفى هذا المشهد جمال طبعى يغرى الخيال بالجولان ، ويملى للخواطر فى الهيمان وكم فى المشاهد المألوفة المكرورة ما يبدو جديدًا كأنما تتملاه العين أول مرة حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح ، والعين المتيقظة للألوان " [1] .

الظل فى مقام الترهيب :

كما أخبر القرآن الكريم بأن الظل نعمة من نعم الله (عز وجل) ، كذلك تحدث عنه فى بعض مقامات الترهيب ، بوصفه جنديًا من جند الله (تعالى) يجعله وسيلة ترهيب وتعذيب للمخالفين .

من ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [2].

فالآية الكريمة تصف موقفًا عصيبًا قد يتعرض له من يركب البحر هو أن يمور البحر ويهيج حتى يكون الموج فوق الرءوس كأنه السحاب الذى يظل من تحته .

فظل الرهبة هنا هو ظل الموج الذى يشبه السحاب ، وهذا الموقف من أصعب المواقف التى قد تمر بالإنسان ، فهو فى عرض البحر ، والموت يأتيه من كل مكان وليس من منقذ إلا القادر (جل وعلا) ، فمن البدهى أن يجأر الإنسان إلى ربه يدعوه أن يخلصه وأن ينقذه ، فإذا استجاب المولى لدعوة عبده المكروب ومَنَّ عليه بالنجاة فقد يدوم بعد ذلك على صلاحه ، وقد يعود إلى الجحود والعصيان .

ويُلاحظ أن الآية جاءت بلفظ (الموج) مفردًا ، وبلفظ (الظلل) مجموعًا وذلك لأن " الموج الواحد العظيم يُرى فيه طلوع ونزول " [3] فكأنه متعدد .

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ٦٩ ، ٧٠ – طبعة دار الشروق – الطبعة الخامسة عشرة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

(٢) الآية ٣٢ من سورة لقمان .

(٣) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى ص ١٤٢ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

وفى قوله (غشيهم) استعارة حيث استعار الغشيان وهو التغطيـــة للمجـــىء لأن ارتفاع الموج – والحالة هذه – يشبه التغطية .

وفى الآية إيجاز بالحذف كأنه قيل : فلما نجاهم انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم غيره.

وقوله : (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) تذييل ؛ لأنها تعم كل جاحد سواء من يجحد سير الفلك وهول البحر ، ومن يجحد نعمة الله عليه بالنجاة ، ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه .

وفى الانتقال من الغيبة إلى التكلم فى قوله (بآياتنا) التفات [1] .

والتشبيه فى قوله (موج كالظلل) يدل على شدة ارتفاع الموج وإحاطته بهم كأنه يظلهم .

وأسلوب القصر فى آخر الآية يدل على أن الغادرين المعاندين وحدهم هم الـــذين يجحدون بآيات ربهم .

● ومن استخدام الظل فى مقام الترهيب قوله تعالى عن بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُـــمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2] ، فظل الترهيب – هنا – هو ظل الجبل الذى رُفع فوق بنى إســـرائيل ترهيبًـــا وتخويفًا حتى بدا كأنه سحابة تظلهم ، وبدوا من تحته وجلين فزعين خشية أن يقع عليهم .

جاء فى كتب التفسير أن موسى (عليه السلام) أتى قومه بما أنزله الله (عز وجل) إليه قائلاً : هذا كتاب الله أتقبلونه بما فيه ؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم ومـــا أمركم وما نهاكم ، قالوا : انشر علينا ما فيه فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفـــة قبلناها ، قال : اقبلوها بما فيها . قالوا : لا حتى نعلم ما فيها : كيف حـــدودها وفرائـــضها ،فراجعوا موسى مرارًا ، فأوحى الله إلى الجبل ، فانقلع ، فارتفع إلى السماء ، حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى (عز وجـــل) ؟ لـــئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل ، فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر [3] .

فظل الجبل المرفوع ظل ترهيب وتخويف لمن عتا عن أمر ربه .

---

(١) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٢٢ / ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ .

وقد اشتملت الآية على عدد من النكات اللغوية والبلاغية فهناك الإيجاز بالحذف فى (وإذ نتقنا) فهو على إضمار " وذكرهم " ، كذلك فى (خذوا) فهو على إضمار (قائلين) ،والتشبيه فى (كأنه ظلة) يدل على شدة ارتفاع الجبل حتى كأنه سحابة تظلهم ، والتعبير بالموصولية فى (ما آتيناكم) للتنبيه على أهمية التوراة التى آتاهم الله إياها فحقيق بهم أن يعملوا بما فيه .

ولا يخفى ما فى الآية من إيجاز بالقصر حيث عرضت هذا المشهد الرهيب فى حياة بنى إسرائيل بكلمات قليلة .

● ومن استعمال الظل فى مقام الترهيب والتعذيب قوله سبحانه عن قوم شعيب (عليه السلام) : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] .فالآية تخبر عما بعثه الله (عز وجل) من العذاب إلى قوم شعيب (عليه السلام) وهم تحت ظل السحابة بعد أن كذبوا نبيهم ولم يصدقوا بدعوته .

ورد أن الله (تعالى) بعث على قوم شعيب وقدةً وحرًّا شديدًا أخذ بأنفسهم ، فخرجوا من البيوت هربًا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردًا ولذة ، فنادى بعضهم بعضًا حتى اجتمعوا تحتها فأرسل الله عليهم نارًا قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة [2] .

والمتتبع لقصة قوم شعيب (عليه السلام) فى القرآن الكريم يجد أن الله (تبارك وتعالى) قد سلط عليهم ثلاثة ألوان من العذاب : الرجفة والصيحة والظلة .

قال ابن كثير : وقد ذكر الله (تعالى) صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق : ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم : ﴿ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [3] .

وذلك لأنهم قالوا ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [4] ، فأرجفوا بنبى الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة .

---

(١) الآية ١٨٩ من سورة الشعراء .

(٢) انظر : الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ / ١٣٩ – ط دار الكتاب العربى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

(٣) من الآية ٣٧ – سورة الأعراف .

(٤) من الآية ٨٨ – سورة الأعراف .

وفى سورة هود : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ (١) ، وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٢) ، قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، وهنا قالوا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ (٣) ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه (٤) .

ويلاحظ هنا أن الذكر الحكيم عبَّر بالفاء المفيدة للتعقيب والسرعة فى أمرى التكذيب والتعذيب ؛ فكأنهم لما سارعوا إلى تكذيب رسولهم سارع الله فى تعذيبهم .

وإضافة العذاب إلى اليوم لأنه زمانه ، ووصف اليوم بـ " عظيم " إشارة إلى شدة ما وقع فيه من العذاب ، كما لا يخفى أن تكرار كلمتى " عذاب " ، " يوم " قد أحدث لونًا من الموسيقا فى الآية .

والمتأمل فى الآية الكريمة يجدها عبرت أروع تعبير عن التكذيب والتعذيب ، وعن زمان العذاب ومكانه وصفته فى كلمات موجزة .

---

(١) من الآية ٩٤ – سورة هود .

(٢) من الآية ٨٧ – سورة هود .

(٣) الآية ١٨٧ – سورة الشعراء .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٦ / ١٦١ .

ظل الآخرة

أخبر القرآن الكريم أن فى الآخرة ظلاً يتنعم به المتقون فى جنات الخلد ، وقد وصف القرآن هذا الظل بأنه ظليل كثيف ، دانٍ غير بعيد ، دائم لا ينقطع ، ممدود لا تنسخه الشمس .

كما أخبر الحق (جل وعلا) فى كتابه أن للكافرين فى سعيرهم نوعًا من الظل ، لكنه ظل عذاب ؛ فهو من دخان أسود ليس بارد ولا كريم ، وهو ظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، وهو محيط بهؤلاء الفجرة من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ظل النعيم فى الجنة :

الظل فى الجنة لون من ألوان النعيم للمؤمنين ، يقول (جل شأنه) : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [1] .

فالذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه فى الدنيا يتمتعون فى الآخرة بظلال ظليلة حيث لا يصيبهم أذًى ولا حر ولا قر ، وعيون ماء تجرى خلال أشجارهم [2] .

ولعل الذكر الحكيم قد ذكر نعيم المؤمنين المتقين تنويهًا بشأنهم ، وتعريضًا بالمشركين ، وترغيبًا لهم فى الإقلاع عن شركهم لينالوا كرامة المتقين [3] .

ويلاحظ هنا أن البيان القرآنى قدم الظل على غيره من ألوان النعيم كالفواكه اهتمامًا به،واعتناءً بشأنه .

---

(١) الآية ٤١ من سورة المرسلات .

(٢) انظر : تفسير الطبرى ٢٤ / ١٤٣ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٤٣ .

وعبر عنه بصيغة الجمع (ظلال) إشارة إلى كثرتها ، وذلك لكثرة أشجار الجنة، وكثرة المستظلين بها، ولأن لكل واحد منهم ظلاً يتمتع فيه هو ومن إليه، وذلك أوقع فى النعيم[1].

والتعبير بحرف الجر (فى) دون غيره لإفادة إحاطة الظل بأهل الجنة إحاطة شاملة كإحاطة الظرف بالمظروف .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " وفى للظرفية ، وهى ظرفية حقيقية بالنسبة للظلال لأن المستظل يكون مظروفًا فى الظل ، وظرفية مجازية بالنسبة للعيون والفواكه..."[2].

● ومن الآيات التى تتحدث عن الظل كنعيم لأهل الجنة قوله (عز وجل) : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [3] .

والضمير فى الآية راجع إلى أصحاب الجنة المذكورين فى الآية السابقة .

فأصحاب الجنة يتمتعون فى ظلالها الجنة هم وأزواجهم فى حال اتكائهم على الأرائك .

وكون أصحاب الجنة فى الظلال نعيم ، وقد جمعت الآية إليه ثلاثة ألوان أخرى من النعيم هى كونهم برفقة أزواجهم ، وهن أزواج موصوفات بكمال الحسن ، فيحصل بذلك الألفة والإيناس ، وكونهم على الأرائك التى هى أكثر راحة وترفيهًا من غيرها مما يُجلس عليه ، وكونهم متكئين حيث إن الاتكاء أكثر الأوضاع راحة واسترخاءً .

وجمع الظلال – هنا – " لأجل مقابلته بالجمع وهم أصحاب الجنة فكل منهم فى ظل أو ظلة " [4] .

وأكثر المفسرين على أن المراد بظل الجنة ظل الأشجار والقصور ونحوها ، لكن بعض الباحثين المحدثين ذهب إلى أن المراد بالظل فى الجنة اعتدال الجو اعتدالاً يشبه (أجهزة التكييف) فى الدنيا ، واستدل لذلك بأدلة منها هذه الآية قائلاً : لو كان المراد بالظلال ظلال الأشجار لاستلزم أن يكون اتكاء أصحاب الجنة وأزواجهم خارج الغرف والقصور حيث الأشجار ، وذلك مظنة رؤية غيرهم لهم على هذه الحال ، وهو أمر لا يليق فى الدنيا فكيف بالآخرة ؟!

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٤٣ .

(٢) السابق : الصفحة نفسها

(٣) الآية ٥٦ من سورة يس .

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٢٤ / ٤٢ .

واستدل كذلك بقول الله (عز وجل) ﴿لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً﴾ [1] قائلاً: إذا كانت الجنة لا شمس فيها فمن أى شيء نحتمى بالظل إذا كان معناه ظل الشجر ؟! ثم إن كلمة (الظل) فى القرآن الكريم لم ترد أبدًا مقترنة بالشجر .

وإذا قلنا : إن المراد بظل الجنة ظلال أشجارها لزم منه أن يكون نعيم الدنيا المتمثل فى (التكييف الصناعى) الذى يتنعم به الظالم ربما أكثر من المؤمن هو أفضل من نعيم الجنة وهذا أمر غير مقبول [2] .

وهذا القول – على وجاهته – ينبغى التحفظ فى قبوله لأنه يتكلم عن أمور غيبية لا سبيل لمعرفتها سوى مصادر الشريعة .

ومن الآيات التى تذكر الظل نعيمًا يتمتع به أهل الجنة قوله (تبارك وتعالى) : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [3] ، حيث ورد الظل الظليل فى مقام تعديد نعيم أهل الجنة ... الذين أورثوها بإيمانهم وأعمالهم الصالحة ، فبدأ بالأنهار الجارية ، ثم الخلود الأبدى ، ثم ألأزواج المطهرة ، وختم بالظل الظليل .

وقد اختُلِفَ فى المراد بالظل الظليل فقيل هو العميق الكثير الغزير الطيب الأنيق[4].

وقيل : الظليل الذى يقى من الحر والبرد ، أو الذى لا ينتقل كظل الدنيا ، وقيل القوى المتمكن ، وقيل : وإنما قال (ظلاًّ ظليلاً) لأن بلاد العرب فى غاية الحرارة فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة ، ولهذا المعنى جعل كناية عن الراحة ، ووصف بالظليل مبالغة فى الراحة [5] .

فالظل الظليل فى الآية كناية عن راحة أهل الجنة وما هم فيه من نَعمة ، وفيه من جهة اللفظ جناس الاشتقاق الذى يكسب الكلام جمالاً لفظيًّا ووقعًا موسيقيًّا .

وقد جرت الآية على سنن العرب فى التعبير لأنهم كانوا يصفون الشيء بما اشتُق

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الإنسان .

(٢) انظر : شبكة المعلومات الدولية (Internet) موقع :
http://forum.amrkhaled.net

(٣) الآية ٥٧ من سورة النساء .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٣٣٨ .

(٥) انظر : البحر المحيط ٣ / ٢٧٥ .

من لفظه على سبيل المبالغة كقولهم : ليل أليل وداهية دهياء [1] .

● ومن الآيات المتحدثة عن ظل أهل الجنة قوله (سبحانه) : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ [2].

حيث ذكرت الآية أن أصحاب الجنة يتمتعون بالظلال القريبة منهم ، والثمار المذللة لهم .

قال القرطبى : " ويقال إن ارتفاع الأشجار فى الجنة مقدار مائة عام ، فإذا اشتهى ولى الله ثمرها دنت حتى يتناولها " [3] .

وقال مجاهد : " إن قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلت حتى ينالها ، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها ، فذلك قوله (تذليلا) " [4] .

ولاشك أن فى هذه نهاية النعيم وغايته ، فسبحان من أعده لأهل طاعته .

ولا يخفى أن جمع (الظلال) و (القطوف) لأجل إفادة التكثير ، فهى ظلال كثيرة وقطوف عديدة لكثرة المتمتعين بها .

وفى إتيانه بالمصدر (تذليلا) بعد الفعل (ذللت) تأكيد وتوضيح فضلاً عما بين الكلمتين من جناس الاشتقاق الذى يحسن الكلام ويزيد إيقاعه .

أوصاف ظل الجنة :

وصف القرآن الكريم ظل الجنة بأربعة أوصاف هى :

أولاً : ظل الجنة ظليل .

ثانيًا : ظل الجنة دانٍ .

ثالثًا :ظل الجنة دائم .

رابعًا : ظل الجنة ممدود .

فالوصف الأول يوضحه قول الله (تعالى) : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [5] ،

---

(١) انظر : السابق : الصفحة نفسها .

(٢) الآية ١٤ من سورة الإنسان .

(٣) تفسير القرطبى ١٩ / ١٢٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ٨ / ٢٩ .

(٥) من الآية ٥٧ – سورة النساء .

والوصف الثانى يوضحه قوله (سبحانه) : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ [1] . وقد سبق الحديث عن الآيتين .

أما الوصف الثالث فيوضحه قوله (عز وجل) : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[2].

فقد وصفت الآية أُكُل الجنة وظلها بالدوام ، ودوام الظل استمراره وعدم زواله وفنائه " وهو رد على الجهمية [3] حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى " [4] .

وقيل : دوام الظل كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس كما قال تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ [5] ، وذلك من محامد الجنات وملاذّها"[6].

فدوام ظل الجنة عدم انقطاعه ، أو عدم نفوذ الضوء منه ، والمثل المذكور أول الآية مستعار من المثل الذى هو الشبيه فى حالة عجيبة ، فأطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنها جديرة بالتشبيه [7] .

وفى قوله : (أكلها دائم وظلها) إيجاز بالحذف إذ التقدير وظلها دائم ، وفى قوله ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ مقابلة وضحت المعنى وأكدته وأظهرت حال كلا الفريقين .

والوصف الرابع لظل الجنة يوضح قوله (تبارك اسمه) ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ [8].

والظل الممدود هو الدائم الذى لا تنسخه الشمس [9] ، أو هو الذى لا يتقلص

---

(١) من الآية ١٤ – سورة الإنسان .

(٢) الآية ٣٥ سورة الرعد .

(٣) الجهمية هم أتباع جهم بن صفوان ، يقولون إن الإنسان لا إرادة له ولا اختيار ، وإنما هو مجبور فى كل أفعاله (انظر : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية – للدكتور / عبد المنعم الحفنى ص ٢٤٤ – مكتبة مدبولى ١٩٩٩ م) .

(٤) تفسير البغوى ٤ / ٣٢٢ .

(٥) الآية ١٦ – سورة النبأ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير ١٤ / ١٥٥ .

(٧) التحرير والتنوير ١٤ / ١٥٥ .

(٨) الآية ٣٠ من سورة الواقعة .

(٩) تفسير البغوى ٨ / ١٢ .

كظل الدنيا [1] .

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال : " شجرة فى الجنة على ساق العرش يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون فى أصلها ، ويشتهى بعضهم لهو الدنيا ، فيرسل الله (عز وجل) إليها ريحًا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا " [2] .

وعن عمرو بن ميمون قال : " وظل ممدود مسيرة خمسمائة ألف سنة " [3] .

فالظل الممدود هو الدائم الذى لا ينقطع ، أو الممتد الذى لا يتقلص ، وهذا الوصف جارٍ على طريقة العرب، لأن "العرب تقول للشيء الذى لا ينقطع ممدود"[4].

ظل العذاب فى النار :

إذا كان الظل فى الجنة لونًا من ألوان نعيم المؤمنين فإن الظل فى النار لون من ألوان عذاب الكافرين .

ومن حديث القرآن عن ظل العذاب فى النار قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ [5] .

حيث ذكرت الآيات أن لأصحاب الشمال (أهل النار) ظلاً ، وهذا الظل (من يحموم) وهو دخان شديد السواد ، والعرب تقول : أسود يحموم إذا كان شديد السواد .

وقال الضحاك : النار سوداء ، وأهلها سود ، وكل شيء فيها أسود .

وقال ابن كيسان : اليحموم اسم من أسماء النار [6] .

ووصف الظل بأنه من يحموم للإشعار بأنه ظل دخان لهب جهنم ، والدخان الكثيف له ظل ؛ لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس ، وذكره هنا لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين فى قوله ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ [7]، أى لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحموم ، وهذا من قبيل التهكم ، ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفى

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٩٩ .

(٢) تفسير البغوى ٨ / ١٢ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٧ / ٥٢٧ .

(٤) تفسير البغوى ٨ / ١٢ .

(٥) الآيات ٤١ – ٤٤ من سورة الواقعة .

(٦) انظر : تفسير البغوى ٨ / ١٨ .

(٧) الآية ٣٠ من سورة الواقعة .

البرد عنه ونفى الكرم ، فبرد الظل ما يحصل فى مكانه من دفع حرارة الشمس ، وكرمه ما فيه من الصفات الحسنة فى الظلال مثل سلامته من هبوب السموم عليه ، وسلامة الموضع الذى يظله من الحشرات والأوساخ ، وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك ، إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه .

فوصف ظل اليحموم بوصف خاص وهو انتفاء البرودة عنه ، وأُتبع بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظلال عنه ، ففى الصفة بنفى محاسن الظلال تذكير بما حرم منه أصحاب الشمال عسى أن يحذروا أسباب الوقوع فى الحرمان ، ولإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظل بالحرارة والمضرة إلى وصفه بنفى البرد والكرم [1] .

وقال قتادة :المعنى: لا بارد المنزل ، ولا كريم المنظر ، وقال سعيد بن المسيب : ولا كريم أى ولا حسن [2] .

وقال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعًا لكل شىء نفت عنه وصفًا تنوى به الذم . تقول : ما هو بسمين ولا بكريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة [3] .

ففى الآيات جَرْى على سنن العرب فى التعبير ، وفيها التهكم من أهل النار بوصف ظلهم بهذه الأوصاف ، وفيها التكرار المراد به التنبيه على سوء العاقبة فى (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) مع ما فيه من تناغم إيقاعى واضح ، وكذلك السجع الرصين غير المتكلف فى مراعاة فواصل الآيات .

ونفى الكرم عن الظل فيه استعارة مكنية حيث شبه الظل بالإنسان ، ثم حذف المشبه به وأثبت لازمًا من لوازمه هو جواز اتصافه بالكرم .

يقول صاحب التصوير الفنى : " والظل ظاهرة تُشهد وتعرف ، ولكنه فى تعبير القرآن نَفْسٌ تُحسّ وتتصرف " [4] .

● وفى آية أخرى يصف القرآن الكريم ظل النار بأنه ذو ثلاث شعب ، يقول (عز وجل) : ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ، لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنْ اللَّهَبِ ﴾ [5] .

---

(١) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٢) راجع : تفسير البغوى ٨ / ١٨ .

(٣) انظر : فتح القدير ١ / ١٤٤٧ .

(٤) التصوير الفنى فى القرآن ص ٢٥١ .

(٥) الآيات ٢٩ – ٣١ من سورة المرسلات .

والمراد بهذا الظل دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق .

وقيل : يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب : أما النور فيقف على رءوس المؤمنين ، والدخان يقف على رءوس المنافقين ، واللهب الصافى يقف على رءوس الكافرين[1] ، وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع .

وقيل : إن الشُّعب الثلاث هى الضريع والزقوم والغسلين ، وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان لأنها ثلاثة أحوال هى غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت[2] .

ثم وصف هذا الظل بأنه لا ظليل أى لا يظلل من الحر ، ولا يغنى من اللهب أى لا يرد لهب جهنم عنهم ، والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لم يدفع عنهم حر اللهب [3] .

والخطاب فى قوله (انطلقوا) للمكذبين فى يوم الحشر ، فهو يقول مقول محذوف دل عليه صيغة الخطاب بالانطلاق دون وجود مخاطب يؤمر به الآن ، والضمير المقدر مع القول المحذوف عائد إلى المكذبين أى يُقال للمكذبين .

والأمر بانطلاقهم مستعمل فى التسخير ؛ لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسرًا . وما كانوا يكذبون به هو جهنم ، وعبر عنه بالموصول وصلته لما تتضمنه الصلة من النداء على خطئهم وضلالهم ، وأُعيد فعل (انطلقوا) على طريقة التكرير لقصد التوبيخ أو الإهانة ، ولأجله أُعيد فعل (انطلقوا) وحرف (إلى) ، ومقتضى الظاهر أن يقال : انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون ظل ذى ثلاث شعب . فإعادة العامل فى البدل للتأكيد فى مقام التقريع . وفى تسمية الدخان ظلاً تهكم بهم ؛ لأنهم يتشوقون ظلاً يأوون إلى برده .

وأفرد الظل ؛ لأنه جعل لهم ذلك الدخان فى مكان واحد ليكونوا متراصين تحته ؛ لأن ذلك التراص يزيدهم ألمًا .

ووصف الظل بأنه (لا ظليل) تحسيرًا لهم لأنه سلب عنه خصائص الظلال لأن شأن الظل أن ينفى عن الذى يأوى إليه ألم الحر [4] .

وبين ظل ، وظليل جناس اشتقاق ، وبين الآيتين الأخيرتين سجع رصين غير متكلف، وفى كليهما زيادة فى الإيقاع والتناغم .

---

(١) انظر : تفسير البغوى ٨ / ٣٠٦ .

(٢) راجع : تفسير القرطبى ١٩ / ١٤١ .

(٣) انظر : تفسير البغوى ٨ / ٣٠٦ .

(٤) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

● ومن الآيات التى تتحدث عن ظل النار قوله (تبارك اسمه) : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[1] .

والظلل جمع ظُلَّة وهى شىء مرتفع من بناء أو أعواد مثل الصُّفة يستظل بها الجالس تحته مشتقة من الظل لأنها يكون لها ظل فى الشمس وهى هنا استعارة للطبقة التى تعلو أهل النار فى جهنم بقرينة قوله (من النار) شبهت بالظلة فى العلو والغشيان مع التهكم لأنهم يتمنون ما يحجب عنهم حر النار ، فعبر عن طبقات النار بالظلل إشارة إلى أنهم لا واقى لهم من حر النار على نحو تأكيد الشىء بما يشبه ضده ، وقوله (لهم) ترشيح للاستعارة ، وأما إطلاق الظلل على الطبقات التى تحتهم فهو من باب المشاكلة ، ولأن الطبقات التى تحتهم من النار تكون ظللاً لكفار آخرين لأن جهنم دركات كثيرة [2] .

وبين فوقهم وتحتهم طباق يؤكد المعنى ويقويه ويفيد الإحاطة والشمول ، وتكرار (ظلل) و (عباد) أحدث وقعًا واضحًا فى السمع .

من ملامح التصوير الفنى :

لعل من نافلة القول أن أذكر أن القرآن الكريم بلغ قمة الإعجاز اللغوى والبيانى والتصوير ، فهو كتاب الله المعجز الذى لا يدانيه كلام أحد من المخلوقين .

وقد تبدت لى من خلال الدراسة بعض ملامح للتصوير الفنى فى آيات الظل أوردها بإيجاز فيما يلى :

الوضوح والسهولة :

استخدمت آيات الظلال الألفاظ الواضحة والأساليب السهلة التى تنفذ إلى القلب فور نفاذها إلى الأذن ، فلا تجد غرابة فى لفظه أو تعقيدًا فى أسلوب .

فنجد – مثلاً – فى قول الله (تعالى) : ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ [3] ، نموذجًا لهذا الوضوح وتلك السهولة على مستوى الألفاظ والأساليب ، فالألفاظ بينة الدلالة ، واضحة المراد ، والأساليب سهلة لا التواء فيها .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الزمر .

(٢) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣) الآية ٤٥ من سورة الفرقان .

الإيحاء :

يستخدم البيان القرآنى – كثيرًا – فى حديثه عن الظلال المفردات ذوات الإيحاء أى تلك التى تحمل دلالات إيحائية زائدة عن معانيها المعجمية المعروفة .

ومن ذلك كلمة (متكئون) فى قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ (١) فهى ترمى بالراحة والاسترخاء والطمأنينة والسكينة التى يكون فيها أهل الجنة ، ومن ذلك أيضًا كلمة (غشيهم) فى قوله (عز وجل) : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ .... ﴾ (٢) فهى توحى بشمول الموج وإحاطته بهم من كل مكان ، ويلاحظ هنا أن إيحاء كل كلمة مناسب تمامًا للموقف الذى تعبر عنه .

استخدام السمع الرصين :

تستخدم آيات الظل السمع الرصين فى كثير من الأحيان وهو – كجميع السجع فى القرآن الكريم – سجع رصين غير متكلف كما فى قوله تعالى عن أصحاب اليمين : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ (٣) .

ولا يخفى ما للسجع من قيمة بلاغية وإيقاعية واضحة .

استخدام الصور البديعة :

يستخدم البيان القرآنى فى حديثه عن الظلال الصور الرائعة البديعة المناسبة للجو النفسى الذى تتحدث عنه الآية .

ففى قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ... ﴾ (٤) . نرى هذه الصورة البديعة المتمثلة فى التشبيه ، حيث شبه الجبل فى ارتفاعه فوقهم على هذا النحو المخيف بالظلة التى تغطيهم وهى صورة بديعة مناسبة لجو الخوف والهلع الذى تصوره الآية الكريمة .

استخدام أسلوب التكرار :

قد تستخدم آيات الظلال أسلوب التكرار كما فى قوله عز وجل : ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ... ﴾ ، والتكرار هنا لغرض توبيخ أهل النار وإهانتهم .

---

(١) الآية ٥٦ من سورة يس .

(٢) الآية ٣٢ من سورة لقمان .

(٣) الآيات ٢٨ – ٣٠ من سورة الواقعة .

(٤) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .

الإيجـــاز :

جاءت آيات الظلال غاية فى البلاغة ، والإيجاز من أهم صـــور البلاغـــة ، وقـــد استخدمت الآيات المتحدثة عن الظل ضربى الإيجاز : إيجاز القصر وإيجاز الحذف .

فمن اللون الأول قوله تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ فقد عبرت الآية بهذه الكلمات الموجزة عن كل معـــانى الراحـــة بعـــد التعـــب ، والاسترخاء بعد الجهد .

ومن اللون الثانى قوله تبارك اسمه عن الجنة : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَـــا ﴾ ، حيـــث حذف المسند وهو (دائم) لدلالة ما قبله عليه .

استخدام أسلوب التضاد :

قد تستخدم آيات الظلال أسلوب التضاد كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَـــا يَـــسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ... ﴾ [1] ، فقد استخدمت الآيات أسلوب التضاد المتمثل فى المطابقات بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور ، وبين الظل والحرور ، وبين الأحياء والأموات ، وهـــذه المطابقات غرضها التأكيد وبيان حال كل من فريقى الإيمان والكفر ، وإظهار البون الشاسع بينهما .

الوحدة والاتساق فى العرض :

تتسم آيات الظل فى القرآن الكريم بوحدة الموضوع ، والاتساق فى عرض المعنى ، حيث تتناسق جزئيات الآية مع الجو العام ، وتتحد جزئيات الصورة تحقيقًا لرســـم صـــورة كلية.

ففى سورة النحل نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَـــلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَـــا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَـــهُ عَلَـــيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [2] .

---

(١) الآيات ١٩ – ٢٢ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ٨٠ ، ٨١ من سورة النحل .

ونلاحظ أن هذا السياق يرسم صورة للبيوت والأكنان والظلال والسرابيل وكلها مما يُلاذ به أو يُحتمى أو يستظل أو يُستتر .

ولأن هذا هو واحدة الرسم فى الصورة القرآنية عرض من الأنعام الجانب الـــذى يتفق مع هذه الوحدة وهو الجلود التى تُتخذ بيوتًا يُستخف يوم الظعن ، والأصواف والأوبار والأشعار التى تُتخذ أردية وأثاثًا ، والمنظر كله منظر أبنية وأردية وظلال [1] .

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٠ ، ١٢١ .

خاتمة

الحمد لله الخالق من العدم ، الواهب الإنسان صنوف النعم ، والمستحق للشكر فى البدء والمختتم .

والصلاة والسلام على سيد الخلق المرسل إلى أشرف الأمم ، وعلى آله وصـــحبه ذوى أطهر الخصال وأعظم الشيم .

ثم أما بعد

فقد انتهيت بحمد الله وتوفيقه من إعداد هذا البحث عن (الظل فى القرآن الكريم) والذى توصلت من خلاله إلى النتائج التالية :

- الظل نعمة من نعم الله عز وجل على عباده فى الدنيا ، ولون من ألوان النعيم للمؤمنين الطائعين فى الآخرة .
- وصف القرآن الكريم ظل الدنيا بأوصاف غاية فى الدقة .
- تحدث القرآن الكريم عن الظل فى مقامات الترهيب بوصفه جنديًّا من جند الله تعالى يجعله وسيلة ترهيب وتعذيب للمخالفين .
- ذكر القرآن الكريم الظل كلون من ألوان النعيم للمؤمنين فى الجنة .
- وصف القرآن الكريم ظل الجنة بأوصاف واضحة مفصلة .
- تحدث القرآن الكريم عن ظل العذاب فى النار بوصفه لونًا من ألوان العذاب للكافرين .
- اتسمت آيات الظل فى القرآن الكريم بملامح مميزة من حيث التعبير البيانى والتصوير الفنى .

والحمد لله أولاً وآخرًا .

أهم المصادر والمراجع

* القرآن الكريم (تبارك من أنزله) .
* إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال : بحث للدكتور / يحيى وزيرى – ط الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة .
* التصوير الفنى فى القرآن – طبعة دار الشروق – الطبعة الخامسة عشر ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م .
* تفسير البغوى (الحسين بن مسعود البغوى) ط دار طيبة .
* تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور – ط دار سحنون .
* تفسير الطبرى (محمد بن جرير الطبرى) – ط دار المعارف .
* تفسير القرطبى – ط دار الفكر .
* التفسير الكبير المسمى البحر المحيط لأثير الدين أبى عبد الله محمد بن يوسف الأندلسى – ط دار إحياء التراث العربى .
*التفسير الكبير لفخر الدين الرازى– ط دار الكتب العلمية– بيروت – لبنان ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م .
* تفسير ابن كثير – ط دار طيبة .
* تفسير الكشاف للزمخشرى – ط دار المعرفة – بيروت – لبنان .
* ديوان كثير عزة – شرح قدرى مايو – ط دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
* ديوان النابغة الجعدى – تحقيق د / واضح الصمد – ط دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .
* فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية لمحمد بن على الشوكانى – ط دار المعرفة.
* القاموس المحيط للفيروزأبادى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .
* الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ط دار الكتاب العربى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
* لسان العرب لابن منظور – ط دار صادر – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م .
* موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية للدكتور / عبد

المنعم الحفنى – مكتبة مدبولى ١٩٩٩ م .
* جريدة الأهرام – العدد الصادر فى ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٤ م .
* مجلة الإعجاز العلمى الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة بجدة – العدد رقم (١١) الصادر سنة ١٤٢٢ هـ .
* شبكة المعلومات الدولية (Internet) موقع :
http://forum.amrkhaled.net.

* * *

تم بحمد الله